

ألف حكاية وحكاية (١١٥)

ثعبان حول العنق

وحكايات أخرى

تأليف

يعقوب الشاروني



رسوم

تامر الشاروني

الناشر

مكتبة مصر

فى متحف العلوم وعمره سنة

عمرُهُ سنةٌ وشهورٌ قليلةٌ ، وقفَ أمامَ المرآةِ المقعَّرةِ ، وتأمَّل صورتَهُ المضحكةَ .

ثم أمسكَتْ أمُّه الشابةُ بيدِهِ ، وجعلَتْهُ يتقدَّمُ خطوةً نحوَ المرآةِ ، فرأى صورتَهُ الغريبةَ تكبرُ . وأبعدَتْهُ ، فشاهدَ صورتَهُ تصغرُ . ثم قادَتْهُ ناحيةَ المرآةِ المُحدَّبةِ .. وبعدَها إلى المرآةِ المستويةِ ، ثم تركَتْهُ يتنقَّلُ وحدهُ فى شغفٍ وحبِّ استطلاعٍ بين المرايا ، يتأمَّلُ الاختلافاتِ بين صورتِهِ فى سعادةٍ ودهشةٍ .

شاهدَتْ تلكَ الأمَّ فى متحفِ نيويوركَ للعلومِ ، الذى يتطلَّبُ ممن يدخلُهُ أن يتعاملَ بكلِّ حواسِّهِ مع كلِّ ما فيه .

وتبعْتُها مع رضيعِها إلى ركنِ " الأصواتِ " ، حيثُ أمْسكَتْ عصا " الإكسلفون " ، لتمرَّ بها على قطعِ المعدنِ المختلفةِ الأطوالِ ، فيستمعَ الصغيرُ إلى نغماتِ السُّلَّمِ الموسيقيِّ . ثم تُعطى العصا لابنِها ، فيضربُ بها قطعَ المعدنِ ، فيشعرُ بالسعادةِ نتيجةَ ما استطاعَ أن يُثيرَهُ من أصواتٍ .

ثم انتقلَتْ به إلى ركنِ الألوانِ ، ليرى كيفَ يمتزجُ الشعاعُ الأصفرُ مع الأزرقِ ، فيصبحان شعاعًا واحدًا أخضرَ اللونِ .



وهكذا لم تترك جهازًا من أجهزةِ التجاربِ العلميةِ ، إلا وتركتْ رضيعَها يتعاملُ معه ، وهو الذى لم يتعلّم المشىَ إلا منذُ ثلاثةِ أو أربعةِ أشهرٍ... والرضيعُ يستخدمُ يديْهِ وعينيْـهِ وأذنيْهِ ، ليكتسبَ خبراتٍ جديدةً ، قد لا يفهمُ معناها الآنَ لكنها تتركُ على حواسِّهِ بصماتٍ لن يمحُوَها الزمنُ .

ثعبان حول العنق

حولَ عنقِهِ التفَّ ثعبانٌ أصفرُ ، تزخرفُهُ حلقاتٌ حمراءُ ..

وفوجئَ الصغيرُ بهذا الذى ظنَّهُ حبلاً ، يتلوَّى فوقَ ذراعِ موظفِ الاستقبالِ .

وفتحَ الصغيرُ فمَهُ فى دهشةٍ متسائلاً ..

لكنْ قبلَ أن يُلقِيَ سؤالَهُ ، كانَ موظَّفُ الاستقبالِ فى متحفِ نيويورك للأطفالِ ، قد أمسكَ برأسِ الثعبانِ ، وقرَّبَهُ من يدِ الصغيرِ .



وبحركةٍ لا شعوريةٍ ، تراجعَ الصبيُّ وهو يهتفُ : " إنه ثعبانٌ !! "

وضحكَ موظفُ الاستقبالِ ، وأمسكَ برفقٍ بيدِ الصغيرِ وهو يقولُ له : " إنه من نوعٍ لا يُؤذى .. غيرِ سامٍّ .. ألا تُريدُ أن تتحسَّسَ جلدَهُ ؟ "

وانتابَتْنى الدهشةُ من جرأةِ الصغيرِ ، فقد سيطرَ عليه حبُّ الاستطلاعِ ، الذى أنساهُ كلَّ خوفِهِ ، ومدَّ يدَهُ يتحسَّسُ جلدَ الثعبانِ ، بينما منعَنى خوفى ، الذى زرعَتْهُ التربيةُ فى أعماقى ، من أن أشاركَ الصغيرَ خبرتَهُ الجديدةَ !!

وفى جانبٍ آخرَ من المتحفِ ، عرضوا ثلاثةَ أقنعةٍ خشبيَّةٍ ، وطلبوا من الصغيرِ أن يُدخِلَ يدَهُ فى فراغٍ مظلمٍ مُجاورٍ ، ليحدِّدَ من خلالِ اللمسِ ،أىَّ الأقنعةِ يُشبِهُ هذا القناعَ الذى يلمسُهُ فى الظلامِ .

وفى الطريقِ إلى البيتِ ، قالَ الصغيرُ : " أكثرُ شىءٍ أعجبَنى ، هو نعومةُ فراءِ الأرنبِ ، الذى تحسَّسْناه فى مسرحِ الحيواناتِ ، أثناءَ الحوارِ حولَ الفرقِ بين الأرنبِ المنزلىِّ والأرنبِ البرىِّ . "





أين اختارت أن تقضي وقت فراغها

كانتْ تجلسُ فوقَ درجاتِ السلالمِ المؤديةِ إلى " ركنِ الأصواتِ " ، في القاعةِ المُخصصةِ لأطفالِ ما قبلَ المدرسةِ ، بمتحفِ نيويورك للعلومِ .

وظننتُ في البدايةِ أنها تراقبُ أطفالَها وهم يلعبونَ .

ودخلتُ مع حفيدي وحفيدتي ، وتركتُهما يحاولانِ تركيبَ كراتٍ خشبيةٍ في أطرافِ عصيٍّ ، لإعطاءِ شكلِ الإلكتروناتِ وهي تتحركُ داخلَ الذرّةِ .

وواجهَ الصغيرانِ بعضَ الصعوباتِ . لكنْ قبلَ أن أتقدَّمَ لمساعدتهما ، وجدتُها تتركُ مكانَها ، وتجلسُ بجوارهما على الأرضيةِ المُغطَّاةِ " بسجادِ الموكيت " ، وتشجّعُهما على إكمالِ العملِ بأنفسهما ، فقد اكتفتْ بأن أوضحتْ للصغيريْنِ كيف يتغلبانِ على ما صادفهما من عقباتٍ ، وتركَتْهما يواصلانِ " اللعبَ والعملَ " وحدَهما .

ثم اندمجتْ هي في اللعبِ مع الصغيريْنِ ، فانتقلتْ بهما من ركنٍ إلى آخرَ من أركانِ القاعةِ ، لاكتشافِ عالمِ الأوزانِ ، والقياساتِ ، والوقتِ ، والمرايا ، والألوانِ . يسألانها فتُجيبُ عن أسئلتِهما بأسئلةٍ أخرى ، ويطلبانِ مساعدتَها فتطلبُ هي مساعدتَهما ، وكلما أنجزا شيئًا تُشيعُهما تشجيعًا .

واكتشفتُ أنه ليس معها أيُّ أطفالٍ . وعندما سألتُها ، قالتْ : " هذه هي طريقتي في قضاءِ وقتِ فراغي : أن أشاركَ الصغارَ أنشطتَهم في متحفِ العلومِ .. فأنا واحدةٌ من بينِ عددٍ كبيرٍ ، يتبرَّعونَ بساعاتٍ قليلةٍ كلَّ أسبوعٍ ، لتنميةِ الاتجاهاتِ العلميةِ عندَ الأطفالِ داخلِ المتحفِ . "



آلة الزمن فى مصر القديمة

عندما حملتْنا آلةُ الزمنِ داخلَ " سفينة فضاء اسمُها الأرضْ " الفضيةِ اللونِ ، وهى أكبرُ مبنى كروىٍّ فى العالمِ ، وذلك عند مدخلِ " مدينة ديزنى العلمية " فى فلوريدا بأمريكا ، كان أولُ توقفٍ طويلٍ لها ، أمامَ أحدِ ملوكِ مصرَ الفرعونيةِ ، وقد ظهرَ وسيمًا ذكيًا قويًا له هيبةٌ ، وبجوارِه الملكةُ ترتدى أجملَ الملابسِ والحلىَّ ذاتِ الذوقِ الرفيعِ ، وأمامَهما كبيرُ الكهنةِ على كتفَيْه جلدُ الفهدِ ، وأمامَهم يجلسُ " الكاتبُ المصرىُّ " ، يسجِّلُ على ورقِ البَرْدى توجيهاتِ رجالِ السلطةِ والدينِ .

وارتفعَ صوتُ قائدِ آلةِ الزمنِ يقولُ فى تأكيدٍ : " بعدَ عصرِ القبائلِ المُتفرِّقةِ ، أقامَتْ مصرُ ، منذُ أكثرَ من خمسةِ آلافِ سنةٍ ، أولَ



دولةٍ ذاتِ حكمٍ مُستقرٍ مُنظّمٍ ، يحدّدُ مسئوليةَ الحكومةِ عن شعبِها ، كما يؤكّدُ سلطانَها عليه . "

" كذلك كانتْ أولَ دولةٍ يخترعُ شعبُها صناعةَ الورقِ ، وبذلك تمّ لأولِ مرةٍ في التاريخِ تسجيلُ مُنجَزاتِ الحضارةِ ، خاصةً الفلكَ والطبَّ والزراعةَ والعمارةَ والموسيقى والرسمَ والنحتَ . "

ثم أخذنا نتأمّلُ المَشاهدَ المجسّمةَ المتحركةَ ، تُعيدُ بعثَ مختلفِ جوانبِ العلمِ والفنِّ في مصرَ القديمةِ .

وتذكّرْتُ ما قالتْهُ " نوبلكور " ، عالمةُ الآثارِ الفرنسيةُ ، ومديرةُ القسمِ المصريِّ بمتحفِ اللوفر :

" إن كلَّ الفنونِ والصناعاتِ في عالمِ اليومِ ، لابد أن نجدَ جذورَها وأصولَها ، في الحضارةِ المصريةِ القديمةِ. "



ليس كل من ركب حصانًا ، يصبح فارسًا

مع الفجرِ ، وقفَ رجلٌ على الشاطئِ مدةَ ساعتَيْن ، يُراقبُ في دهشةٍ ذلك الصيادَ الذي استمرَّ يرفعُ بسرعةٍ ، كلَّ بضعِ دقائقَ ، قصبةَ الصيدِ التي معَهُ ، بعيدًا عن سطحِ الماءِ ، لينتزعَ من الصنارةِ سمكةً كبيرةً ، إلى أن امتلأت سلَّتُهُ .

ثم راقبَه يجمعُ أدواتِه ، ويتراجعُ بضعَ أمتارٍ على رمالِ الشاطئِ ، قبلَ أن يجلسَ ليتناولَ إفطارَهُ في رضًا .

وفي هدوءٍ ، تقدَّمَ الرجلُ إلى نفسِ المكانِ ، الذي كان يقفُ فيه ذلك الصيَّادُ الذي ملأ سلتَهُ ، واستخدمَ قصبةَ صيدٍ تُشبهُ تمامًا قصبةَ ذلك الصيادِ ، ثم ألقى صنارتَهُ في نفسِ بقعةِ الماءِ .

ومضَتْ دقائقُ طويلةٌ ، ظلَّ خلالَها ينتزعُ صنارتَهُ المرةَ بعدَ الأخرى من الماءِ ، لكنْ لا شيءَ يخرجُ مع قطعةِ المعدنِ البراقةِ !!

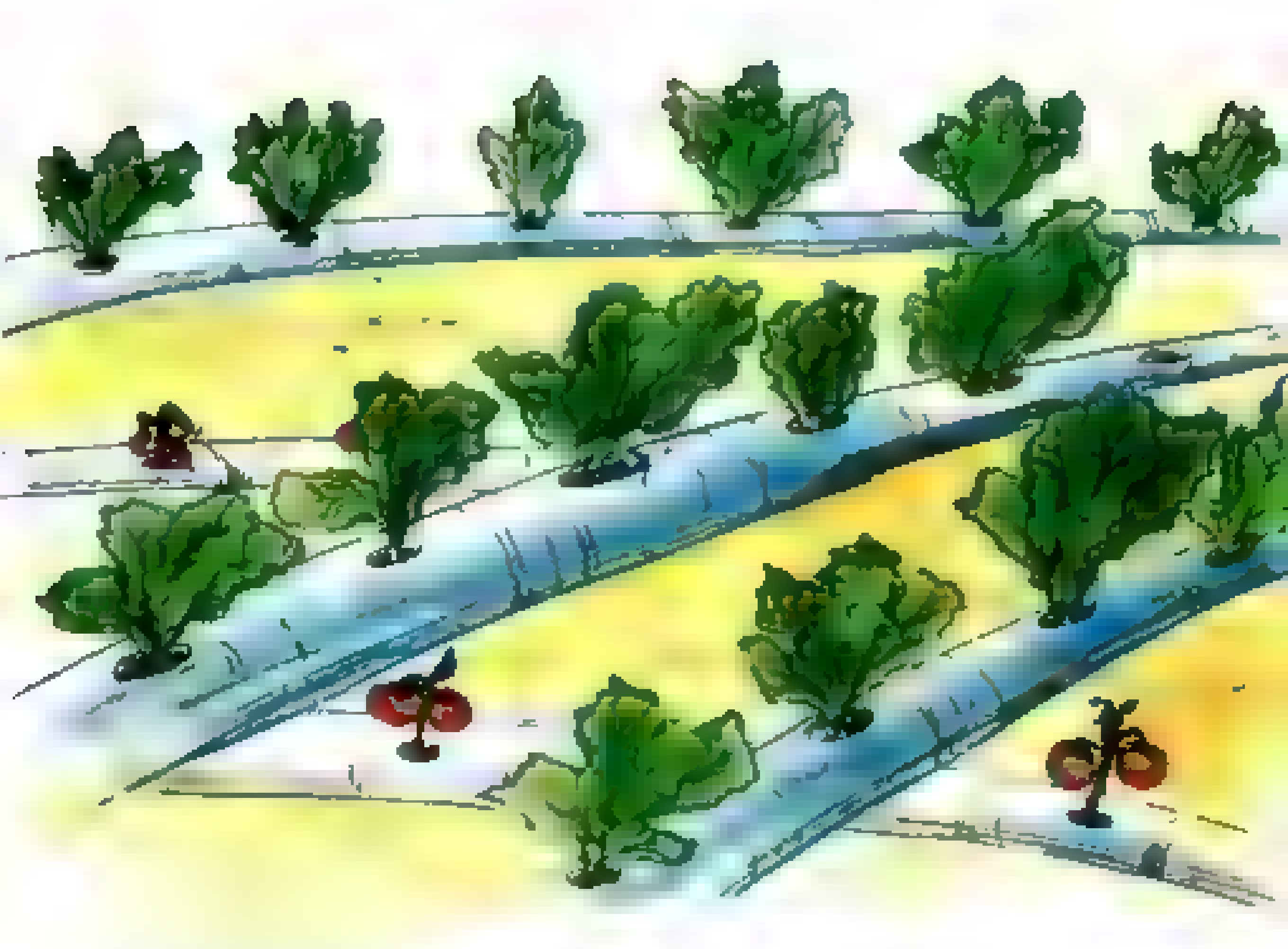
قالَ الرجلُ لنفسِه : " نفسُ المكانِ ، ونفسُ البحرِ ، ونفسُ أداةِ الصيدِ ، لكنْ لا صيدَ . أنا سيِّئُ الحظِّ !! "

أما الصيادُ الجالسُ إلى الخلفِ ، فقد ضحك بغير صوتٍ ، وهو يراقبُ محاولاتِ الرجلِ الخائبة ، ثم همس لنفسه :

" هل ظنَّ الساذجُ أن مجرّدَ احتلاله المكان الذي كنتُ أشغلُه ، سيجعلُه يُصيبُ من النجاح ما وصلتُ إليه ؟! لقد نسي الموهبة ، والخبرةَ ، والتدريب الطويل ، ودقة الإحساسِ الداخليِّ . "



الزراعة بغير أرض



في مساحةٍ من الرمال كأنها جزءٌ من الصحراء، امتدّ أمامنا حقلُ قطنٍ قد تفتّحتْ نوراتُهُ عن كميات كبيرة الحجم من القطن، وبجواره حقلٌ آخرُ من نباتات عباد الشمس المُمتلئة بالبذور، ثم بعضُ أشجار الموز.

وبهذا تُوصِّل العلمُ إلى زراعةِ النباتاتِ التقليديةِ فى المناطقِ الرمليةِ التى تندرُ فيها المياهُ .

ثم حملَنا القاربُ الذى كانَ يتنقلُ بنا فى مدينةِ ديزنى العلميةِ، إلى منطقةٍ حافلةٍ بالأنابيبِ والقطعِ المعدنيةِ المُسطَّحةِ ، وقد ترعرعَتْ من ثقوبٍ فيها أوراقُ " الخس " والفلفلُ الأخضرُ والطماطمُ.

إنها الزراعةُ بغيرِ أرضٍ ، وفيها تستمدُّ النباتاتُ الغذاءَ من الموادِّ الذائبةِ فى الماءِ ، الذى يدورُ فى الأنابيبِ .

ثم فوجِئْنا بنباتاتِ الخيارِ والباذنجانِ الأبيضِ والأسمرِ مُعلَّقةً عاليًا ، وجذورُ سيقانِها مُسترسلةً فى الهواءِ ، وتقطُرُ الماءُ المحتوى على احتياجاتِ النباتِ تنزلُ قطرةً بعد قطرةٍ على تلك الجذورِ التى لا يُغطِّيها شىءٌ .. إنها الزراعةُ الهوائيةُ .

وبعدَها شاهدْنا الزراعةَ الفضائيةَ ، التى تقومُ بها وكالةُ الفضاءِ الأمريكيةُ " ناسا " ، تمهيدًا لأن يحصلَ سكانُ مدنِ الفضاءِ ، فى المستقبلِ ، على ما يحتاجون إليه من غذاءٍ .

كلُّ هذا لم يكنْ خيالَ علماءٍ ، بل هى حقائقُ قد تحقَّقَتْ .

وبَقِىَ أن يصلَ العلماءُ إلى خفضِ تكاليفِها ، وعندئذٍ يجدُ سكانُ الأرضِ كلُّهم ما يفيضُ عن حاجاتِهم من طعامٍ وغذاءٍ .

تصور أنك أحد العلماء

" تصوَّرْ أنكَ أحدُ العلماءِ ، وقد اكتشفْتَ هذه النباتاتِ التى أمامَكَ .. حاولْ أن تعرفَ الفرقَ بين كلِّ نباتٍ وآخرَ . وعليك أن تقومَ باختيارِ اسمٍ لكلِّ نباتٍ ، على أن يتضمَّنَ الاسمُ أهمَّ صفاتِ النباتِ التى تُميِّزُهُ عن غيرِهِ . "

هذا سؤالٌ موجَّهٌ إلى الأطفالِ فى متحفِ الأطفالِ بنيويورك ، أمامَ رفٍّ عليهِ أربعةُ أوعيةٍ ، فى كلِّ وعاءٍ نباتٌ أخضرُ صغيرٌ . وفى متناولِ أيدى الأطفالِ ، أوراقٌ وأقلامٌ ، لكتابةِ ما يقترحونَهُ من أسماءٍ .

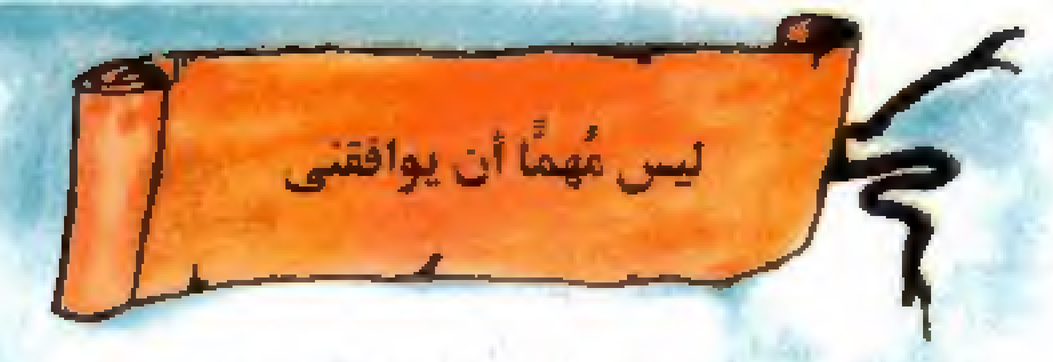
وفى مكانٍ آخرَ ، وقفَ الصغيرُ أمامَ أربعِ سلالٍ مصنوعةٍ من الخيزرانِ الرفيعِ ، كلُّ سلةٍ تم " نسجُها " بطريقةٍ تختلفُ قليلاً عن طريقةِ صُنعِ السلالِ الأخرى ، وأمامها مكتوبٌ : " حدِّدِ السلتَيْنِ المتشابهتَيْنِ . "

وفى ركنٍ ثالثٍ ، مجموعةُ أصدافٍ ، وقطعةُ نُحاسيةٌ على شكلِ نجمةٍ ، وقطعةٌ غريبةُ الشكلِ من الحديدِ ، وأمامها سؤالٌ يقولُ للطفلِ : " هذه الأشياءُ يستخدمُها الناسُ فى غرضٍ متشابهٍ ، فما هو ؟ ! "

وعندما يُريدُ الطفلُ أن يتأكَّدَ من صحةِ إجابتِه ، يجذبُ خيطًا ، فيرتفعُ غطاءُ صندوقٍ ، يكتشفُ بداخلِه ورقةً نقديَّةً حديثةً ، فيعرفُ أن تلك الأشياءَ كانتْ تُستخدَمُ كنقودٍ .



هذه نماذجُ من أنشطةٍ متعددةٍ ، تهدفُ إلى تنميةِ قوةِ الملاحظةِ ، والقدرةِ على المقارنةِ ، وتحديدِ الفروقِ ، واستخلاصِ النتائجِ ، وهذه هي أساسياتُ " التفكيرِ العلميِّ " .



ذاتَ مرةٍ ، كتبَ قارئٌ ساخطٌ على أحدِ الكتابِ الصحفيين ، خطابًا ، وجّهَهُ إلى ذلك الكاتبِ ، يقولُ فيه : " أنا لا أوافقُ إطلاقًا على ما كتبتَهُ في مقالِكَ الأخيرِ . "

وفي نهايةِ الخطابِ ، أخذَ يصفُ الكاتبَ بصفاتٍ غيرِ لائقةٍ ، ويوجّهُ إليه مختلفَ الاتهامات .

لكن الكاتبَ ، الذي اعتادَ مثلَ هذا الأسلوبِ في رسائلِ بعضِ القراءِ ، أرسلَ إلى القارئِ خطابًا قالَ فيه : " يُسعدُني أن تزورَني في مكتبي ، لنبحثَ معًا هذا الموضوعَ ، و أستمعَ إلى آرائكَ بتفصيلٍ أكثرَ . "

وعندما قامَ ذلك القارئُ بزيارتِهِ فعلاً ، استمعَ الكاتبُ إلى آرائهِ وتفهّمَها ، وكذلك استمعَ القارئُ إلى آراءِ الكاتبِ وفهمَ وجهةَ نظرِهِ .

قال الكاتبُ : " لم يكنْ من المهمِّ أن يقتنعَ بوجهةِ نظري ، ولا أن أوافقَهُ على وجهةِ نظرِهِ . الشيءُ المُهمُّ أن كلَّ واحدٍ منّا استطاعَ أن يفهمَ الآخرَ ، وأن يُدركَ كلٌّ واحدٍ منا أن الثانيَ قد كوّنَ رأيَهُ نتيجةَ اقتناعِهِ به ، وليس تحتَ تأثيرِ أيةِ دوافعَ خارجيةٍ ، أو لمجردِ ترديدِ آراءِ آخرينَ !! "